حركة المعنى وبلاغته في حديث:

(إنما الأعمال بالنيات)

إعداد

د / فهد بن محمد بن فهد العمار

الأستاذ المشارك في كلية اللغة العربية

جامعة الإمام محمد بن سعود-المملكة العربية السعودية

١٤٤٣هـ = ٢٠٢١م

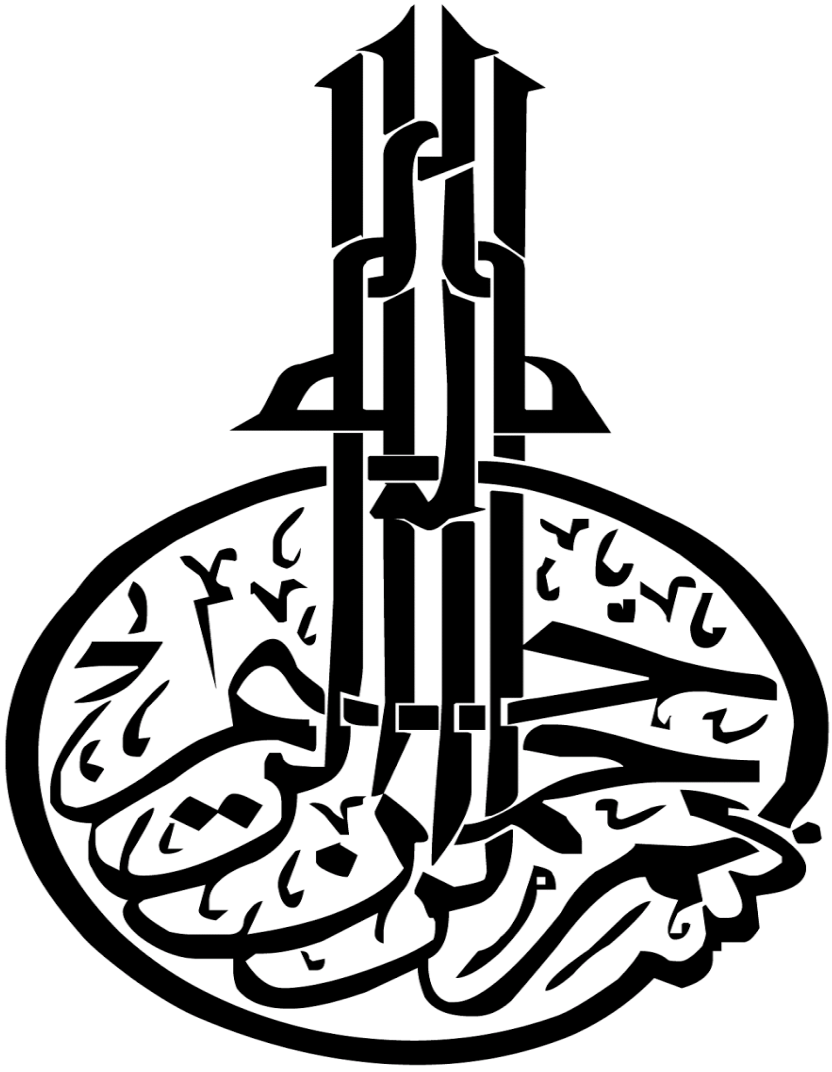

حركة المعنى وبلاغته في حديث: (إنما الأعمال بالنيات)
فهد بن محمد بن فهد العمار
قسم البلاغة والنقد و منهج الأدب الإسلامي- كلية اللغة العربية-جامعة الإمام محمد بن سعود-المملكة العربية السعودية.
البريد الإلكتروني:
fahd10812@gmail.com

ملخص البحث

جاء البحث في مقدمة، وتمهيد ومبحثين، وخاتمة، ذكرت في المقدمة أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وبينت فيها أهداف الدراسة، وخطة البحث ومنهجه، وذكرت في التمهيد:

روايات الحديث، وبينت فضله، وذكرت مناسبة الحديث لموقعه في كتب المحدثين، وقد جعلت التمهيد توطئة لدراسة الحديث بلاغيا، وبيان حركة معناه، من خلال ذكر رواياته المتعددة عند الإمام البخاري، ومسلم -رحمهما الله -، ثم ذكرت فضل هذا الحديث، ومنزلته في الإسلام، وبعدها بينت سبب افتتاح كثير من المحدثين بهذا الحديث، وجعله في صدر مؤلفاتهم.

وأما المبحثان، فكان المبحث الأول تنظيرا لموضوع حركة المعنىٰ، بعنوان: حركة المعنىٰ ودلالته في البيان النبوي، ذكرت فيه أهمية المعنىٰ في الدرس البلاغي، وأهمية دراسة حركة المعنىٰ كذلك، وبينت المراد به، والشرط التي يجب أن تتوافر في المتأمل في النص؛ للوقوف علىٰ حركته، وبينت ما تميز به البيان النبوي في أداء المعنىٰ، وتنوع طرقه في ذلك، وأنه في

هذا يسير علىٰ خطا البيان القرآني، دلالة علىٰ أن هذه البلاغة النبوية وحي أوحاه الله إليه، وأجراه علىٰ لسانه –صلىٰ الله عليه وسلم.

ولم يكن الحديث عن حركة المعنىٰ في هذا المبحث مقصودا لذاته، بل كان بمثابة التوطئة، والمدخل للمبحث الثاني، وهو الدراسة التطبيقية لحركة المعنىٰ في حديث (إنما الأعمال بالنيات) ، والمبحث الثاني قد كان بعنوان: حركة المعنىٰ وبلاغته في حديث (إنما الأعمال بالنيات) وهو لب الدراسة، وهدفها، وهي الإضافة العلمية في هذا الموضوع، وهو الجانب التطبيقي في هذا البحث، فتناولت هذا الحديث بالتفصيل والبيان الحركة المعنىٰ وأنواعه، فتتبعت المعنىٰ، وبينت حركته التصاعدية، بداية بالجملة المحورية للحديث (إنما الأعمال بالنيات) ثم ذكرت أن ما جاء بعدها تفرع منها، فتحرك المعنىٰ من هذه الجملة: وقد تعددت حركة المعنىٰ وتنوعت في هذا الحديث، من خلال ضرب الأمثال المتعددة، ومن خلال الجمل التي جاءت بعدها تأكيدا وتأسيسا، وكان المعنىٰ يتحرك فيها من جزئية إلىٰ أخرىٰ، وقد تتبعت حركة المعنىٰ في الحديث كله، مع بيان بلاغته، وما تضمنته من أسرار بلاغية؛ تحقق غرض المتكلم، وتبين مقصوده. ثم خاتمة البحث ذكرت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها، ثم فهرس البحث، ذكرت فيه ثبت المراجع والفهارس.

الكلمات المفتاحية: حركة المعنىٰ في البيان النبوي–المعنىٰ وبلاغته–الأعمال بالنيات–البلاغة النبوية

The movement of meaning and its eloquence in the hadith: (Actions are by intentions)

Fahd bin Muhammad bin Fahd Al-Ammar
Department of Rhetoric, Criticism and the Curriculum of Islamic Literature - College of Arabic Language - Imam Muhammad bin Saud University - Kingdom of Saudi Arabia.
E-mail: fahd10812@gmail.com

Abstract:

The research consisted of an introduction, a preface, and two chapters. In the introduction, I mentioned the importance of the topic, the reasons for selecting, the objectives of the study, and the research plan and methodology.

In the preface, I mentioned the hadith narrations, its excellence, and appropriateness to its position in the books of Scholars of Hadith. I made the preface as a preparation for studying the hadith rhetorically and explaining the movement of its meaning, by mentioning its multiple narrations in the Two Sahihs (Imam al-Bukhari and Muslim - May Allah be Merciful to them. Then, I mentioned the importance of this hadith and its status in Islam and explained the reason why many Hadith scholars put it at the front of their books.

As for the two chapters, the first chapter was a conceptualization of the movement of the meaning subject, entitled: The movement of meaning and its significance in the prophetic rhetoric, in which I mentioned the importance of meaning in the rhetorical lesson, and the importance of studying the movement of meaning as well. I clarified the concept of the movement of meaning and the conditions that shall be met by the meditator in the text to identify its movement. I also mentioned the advantages of prophetic rhetoric in terms of the performance of the

meaning, and the diversity of its methods in the process. I also mentioned that the prophetic rhetoric takes that after the Qur'anic rhetoric as an indication that this prophetic rhetoric is a revelation that Allah revealed to His Prophet Mohammed (PBUH)

It is worth mentioning that Talking about the movement of meaning in the first chapter was not intended for its own sake, rather it was a preparation for and an introduction to the second chapter, which is the applied study of the movement of meaning in "Actions are (judged) by motives (niyyah)" hadith "But actions are by intention".

The second chapter, entitled "The movement of meaning and its eloquence in "Actions are (judged) by motives (niyyah)" hadith which is the core of the study, its objective, the scientific addition in this topic, and the practical aspect in this research. I dealt with this hadith in detail and clarified the movement of the meaning and its types. I traced the meaning, and showed its upward movement, beginning with the focal sentence of the hadith (Actions are (judged) by motives) (niyyah), then I mentioned that everything afterward was a branch of this sentence, so the meaning moved from this sentence. The movement of meaning in this hadith has varied, through multiple proverbs and the sentences that came after which were confirmation. The meaning was moving in these sentences from one part to another. I traced the movement of meaning in the whole hadith, explaining its eloquence, and the rhetorical secrets it contained.

In the conclusion, I mentioned the most notable results and the research index, in which I mentioned the references.

Keywords: movement of meaning in the prophetic statement - meaning and its eloquence - actions with structures - prophetic rhetoric

مقدمة البحث

الحمد الله رب العالمين ؛ الذي خلق الإنسان، وعلمه البيان، والصلاة والسلام علىٰ خير الأنام محمد بن عبدالله ﷺ، الذي أوتي القرآن ومثله معه، فكان منطقه وحيا أوحاه الله إليه، وأجراه علىٰ لسانه، امتلك ناصية البيان، وأعطي جوامع الكلم، صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا، أما بعد:

فيشرف المرء حقا أن يكون له نصيب من الكتابة في البيان النبوي: في بيان ما خص الله به رسوله عليه الصلاة والسلام من الفصاحة والبلاغة، وفي إظهار خصائص البلاغة النبوية، كيف لا وبلاغته فوق بلاغة البشر جميعا، فهو إمامهم وقدرتهم في منطقه وفصاحته، فقد بزَّ بمنطقه الشعراء والخطباء، وقصروا أن يبلغوا شأوه، ويبلغوا منزلته، فدانوا له بالبلاغة والبيان، واعترفوا بفضله وسبقه علىٰ الناس جميعا.

وكيف لا يكون منطقه كذلك وقد قال الله – تعالىٰ – عنه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [سورة النجم:٣-٤].

فبلاغته وحي ممن خلقه في أحسن تقويم: في هيئته ومنطقه، ولذا ففي بلاغته ﷺ نور وروح، وارتباط وثيق، وسر عميق بينه وبين من أرسله للعالمين بشيرا ونذيرا، وللرافعي كلام في بيان بلاغة الرسول ﷺ أشار إلىٰ هذه الحقيقة وأكدها بقوله: "وألفاظ النبوة يعمرها قلب متصل بجلال خالقه، ويصقلها لسان نزل عليه القران بحقائقه، فهي وإن لم تكن من الوحي ولكنها جاءت من سبيله، وإن لم يكن لها منه دليل فقد كانت هي من دليله، محكمة

الفصول ، حتىٰ ليس فيها عروة مفصولة، محذوفة الفضول، حتىٰ ليس فيها كلمة مفضولة، وكأنما هي في اختصارها وإفادتها نبض قلب يتكلم، وإنما هي في سموها وإجادتها مظهر من مظاهر خواطره ﷺ". (١)

ولن يكون حديثي عن البيان النبوي بعامة، وعلىٰ سبيل الإطلاق، ولن يكون – كذلك – حديثا نظريا، بل ستكون دراستي عن البيان دراسة تطبيقية، وفي موضوع جديد في الدراسات البلاغية، وهو المعنىٰ وحركته في تحقيق غرض المتكلم ومقاصده، ولذا فالمعنىٰ وحركته في حديث (إنما الأعمال بالنيات) هي مجال الدراسة، وميدان البحث، وهذا هو وجه تميز هذا البحث، والإضافة العلمية له، إنه دراسة تطبيقية للمعنىٰ في البيان النبوي، في جانب محدد يتعلق به، ولا يخفىٰ أن الدراسات التطبيقية التحليلية من الأهمية بمكان في الدرس البلاغي، فهي تفيد من التنظير، وتنطلق منه، ولا تقف عند حده .

أهمية الموضوع وسبب الاختيار:

ثمة أسباب علمية دعتني إلى اختيار هذا العنوان، والكتابة فيه، ومن أهمها ما يأتي:

أولا: أن هذا الموضوع يتجه إلىٰ إبراز المعنىٰ، وبيان غاياته، ولا يخفىٰ أهمية المعنىٰ وأثره، فهو يقاسم اللفظ في تحقيق غرض المتكلم، فهو الغاية التي من أجلها تحدث المتحدثون، والهدف الذي يسعىٰ إلىٰ تحقيقه الخطباء والبلغاء وجميع المتكلمين، ومن هنا نال المعنىٰ حقه من الأهمية والإشادة.

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، الرافعي: ٢٧٩

ثانيا: لن يتناول هذا البحث المعنىٰ بعامة، وإنما يُعنىٰ بجزئية محددة، وبقضية واحدة من قضاياه، وهي: حركة المعنىٰ، ومن هنا تتجلىٰ أهمية هذا الموضوع، فهو يتتبع حركة المعنىٰ التصاعدية، وينظر في الأساليب البلاغية التي أبرزت حركة المعنىٰ، وساعدتها علىٰ الظهور.

ثالثا: تتجلىٰ أهمية هذا البحث من أهمية الحديث الذي ستتناوله الدراسة البيان والتحليل؛ لبيان حركة المعنىٰ، وهو قوله - عليه الصلاة والسلام-: (**إنما الأعمال بالنيات**)، ولهذا الحديث أثره وفضله في الإسلام، يدل علىٰ ذلك ويؤكده قول ابن حجز العسقلاني في شرحه لهذا الحديث: "وقد تواتر النقل عن الأئمة تعظيم قدر هذا الحديث، قال أبو عبدالله: ليس في أخبار النبي ﷺ شيء أجمع وأغنىٰ وأكثر فائدة من هذا الحديث، وقال الشافعي هذا الحديث يدخل في سبعين باباً".(١)

رابعا: تتجلىٰ أهمية هذا البحث؛ في كونه دراسة تطبيقية من خلال النظر في حركة المعنىٰ وبلاغته في البيان النبوي في حديث (إنما الأعمال بالنيات)، وهذه هي الإفادة الحقيقية من جهود علمائنا في هذا المجال، وتوظيفه في مثل هذه الدراسات البلاغية التطبيقية.

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجز العسقلاني: ١/ ١١ ،و(أبو عبدالله) الوارد في نص ابن حجر هو : الإمام أحمد بن حنبل ؛ لأنه إذا اطلقت هذه الكنية عند المحدثين فإنما تعني ابن حنبل رحمه الله .

خامسا: أن هذه الدراسة التطبيقية لبيان حركة المعنىٰ وبلاغته تتجه إلىٰ دراسة نص واحد متكامل بخصائصه الموضوعية والأسلوبية، فمجال الدراسة وميدانها محددة المعالم بداية وانتهاء، فالحديث في البيان النبوي كالسورة القرآنية الواحدة، له خصائصه وأسباب وروده، ووحدته الموضوعية، وخصائصه الفنية.

أهداف الدراسة:

تتجلى الأهداف التي أسعى إلى تحقيقها فيما يأتي:

أولا: بيان المراد بحركة المعنىٰ، وذكر أهميته في الدراسات البلاغية .

ثانيا: بيان أهمية حديث (إنما الأعمال بالنيات)، ومكانته في الإسلام، وبيان دلالة الافتتاح به في كثير من مؤلفات العلماء .

ثالثا: الكشف عما تميز به الرسول ﷺ في معانيه وفي طريقة أدائها، وبيان خصائصها.

رابعا: بيان حركة المعنىٰ في حديث (إنما الأعمال بالنيات)، مع بيان الأسرار البلاغية المصاحبة لها، وذكر مقاماتها .

منهج الدراسة:

ستقوم الدراسة على المنهج الوصفي، القائم علىٰ الاستنباط والتحليل، الاستنباط والتأمل لحركة المعنىٰ في حديث (إنما الأعمال بالنيات)، وتحليل تلك المعاني تحليلا بلاغيا، لمعرفة ما تضمنته من أساليب في تحقيق غرض المتكلم.

خطة البحث:

جاء البحث في مقدمة وتمهيد ومبحثين، ثم خاتمة البحث وفهارسه.

ذكرتُ في المقدمة أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وبينت فيها أهداف الدراسة، وخطة البحث ومنهجه.

وذكرت في التمهيد ما يأتي:

أولا: روايات الحديث

ثانيا: فضل الحديث

ثالثا: مناسبة الحديث لموقعه في كتب المحدثين.

والمبحث الأول بعنوان: حركة المعنى ودلالته في البيان النبوي

المبحث الثاني بعنوان: حركة المعنى وبلاغته في حديث (إنما الأعمال بالنيات)

ثم الخاتمة، ذكرت فيها نتائج البحث التي توصلت إليها، وبعض التوصيات العلمية.

وبعد فهذه هي أهداف البحث وغاياته التي أسعىٰ إلىٰ تحقيقها وبيانها -بإذن الله- فإنْ تحقق ذلك فهو توفيق من الله وفضل، فهو صاحب الفضل والجود، والله أسأل أن يأخذ بيدي، ويفتح لي، ويهديني للحق والصواب، فهو نعم المولىٰ ونعم المسؤول، وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد وآله وصحبه ، وسلم تسليما كثيرا .

التمهيد

ويشمل:

أولا: روايات الحديث .

ثانيا: فضل الحديث .

ثالثا: مناسبة الحديث لموقعه في كتب المحدثين.

التمهيد

أولا: روايات الحديث :

من الأهمية بمكان ذكر الحديث بتمامه، بل برواياته؛ ليكون القارئ علىٰ بينة من أمره، فمن المهم أن تكون جميع روايات الحديث بين يديه، وسأكتفي بذكر رواية البخاري ومسلم، والحديث كما يذكر ابن حجر متفق علىٰ صحته، فقد رواه الأئمة المشهورون من أهل الحديث.(١)

روىٰ البخاري (حديث الأعمال بالنيات) في روايات مختلفة، وفي مواضع متعددة من صحيحه، فرواه في مفتتح كتابه، عن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه– علىٰ المنبر قال سمعت رسول الله يقول: "إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوىٰ، فمن كانت هجرته إلىٰ دنيا يصيبها أو إلىٰ امرأة ينكحها فهجرته إلىٰ ما هاجر إليه" .(٢)

الرواية الثانية: عن عمر – رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال: "الأعمال بالنية، ولكل امرئ ما نوىٰ، فمن كانت هجرته إلىٰ الله ورسوله فهجرته إلىٰ الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها فهجرته إلىٰ ما هاجر إليه" .(٣)

الرواية الثالثة: عن عمر – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ قال:"الأعمال

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني: ١/ ١١

(٢) كتاب بدء الوحي، باب :كيف كان بدء الوحي إلىٰ رسول الله ﷺ، رقم الحديث: ١

(٣) كتاب الإيمان، باب :ما جاء أن الأعمال بالنية والحسبة، رقم الحديث: ٥٤

بالنية، ولا مريء ما نوىٰ، فمن كانت هجرته إلىٰ الله ورسوله فهجرته إلىٰ الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها فهجرته إلىٰ ما هاجر إليه" .(١)

الرواية الرابعة: عن عمر – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ قال: "الأعمال بالنية، ممن كانت هجرته إلىٰ دنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها فهجرته إلىٰ ما هاجر إليه، ومن كانت هجرته إلىٰ الله ورسوله فهجرته إلىٰ الله ورسوله" .(٢)

الرواية الخامسة: عن عمر – رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال: "العمل بالنية، وإنما لا مريء ما نوىٰ، فمن كانت هجرته إلىٰ الله ورسوله فهجرته إلىٰ الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها فهجرته إلىٰ ما هاجر إليه" .(٣)

الرواية السادسة: عن عمر – رضي الله عنه – قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "(إنما الأعمال بالنية، وإنما لا مريء ما نوىٰ، فمن كانت هجرته إلىٰ الله ورسوله فهجرته إلىٰ الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو

---

(١) كتاب العتق، باب :الخطأ والنسيان في العتاقة والطلاق ونحوه، ولا عتاقة إلا لوجه الله تعالىٰ رقم الحديث: ٢٥٢٩

(٢) كتاب مناقب الأنصار، باب: هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلىٰ المدنية، رقم الحديث: ٢٥٢٩

(٣) كتاب النكاح، باب: من هاجر أو عمل خيرا لتزويج امرأة فله ما نوىٰ، رقم الحديث: ٥٠٧٠

امرأة يتزوجها فهجرته إلىٰ ما هاجر إليه" .(١)

الرواية السابعة: عن عمر – رضي الله عنه – قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "يا أيها الناس إنما الأعمال بالنية، وإنما لا مريء ما نوىٰ، فمن كانت هجرته إلىٰ الله ورسوله فهجرته إلىٰ الله ورسوله، ومن هاجر إلىٰ دنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها فهجرته إلىٰ ما هاجر إليه" .(٢)

وقد روىٰ الإمام مسلم – رحمه الله – حديث (إنما الأعمال بالنيات) في صحيحة برواية واحدة عن عمر – رضي الله عنه – قال: رسول الله ﷺ: "إنما الأعمال بالنية، وإنما لا مريء ما نوىٰ، فمن كانت هجرته إلىٰ الله ورسوله فهجرته إلىٰ الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها فهجرته إلىٰ ما هاجر إليه" .(٣)

وجميع روايات الحديث الواحد من الأهمية بمكان؛ لتكون تحت النظر عن التحليل البلاغي، وعند رصد حركة المعنىٰ في هذه الروايات كلها، فهذه الروايات يسند بعضها بعضا، ويكمل بعضها بعضا وللدكتور محمود توفيق نص نفيس في أهمية جمع روايات الحديث الواحد يقول:"ليكون ذلك وطاء

---

(١) كتاب الأيمان والنذور، باب: النية في الأيمان، رقم الحديث: ٦٦٨٩

(٢) كتاب الحيل، باب: في ترك الحيل وأن لكل امرئ ما نوىٰ في الأيمان وغيرها، رقم الحديث: ٦٩٥٣

(٣) كتاب الإمارة، باب: قوله (إنما الأعمال بالنية وأنه يدخل فيه الغزو وغيره من الأعمال) ، رقم الحديث: ١٩٠٧

وتهيئة لدراسة بنية النص؛ وفقا لمنهج التحليل الداخلي لتراكيبه في ضوء القرائن المقالية الملابسات الداخلية والخارجية لها، وآفاق السياق الذي يقوم عليه، والغاية التي يرمي به إليها... وغير ذلك مما هو داخل في منهج التحليل الخارجي لما هو ذو أثر بالغ في بناء وتشكيل معنىٰ النص".(١)

ثانيا: فضل الحديث:

من أسباب اختياري حديث (إنما الأعمال بالنيات) هو عِظم منزلته، وعلو شأنه، وجليل مكانته في الإسلام، ولذا آثرت أن يكون ميدان هذه الدراسة ومجالها؛ للنظر في بلاغته، وحركة معناه، وقد سبقت الإشارة إلىٰ شيء من أهميته في المقدمة في سبب أهمية الموضوع وسبب اختياره.

وفضل الحديث لا يقف عند المذكور بل تتعداه، فما أكثر الأقوال الواردة عن علماء الحديث في بيان فضله، وعظيم منزلته، وعظم وقعه، فالحديث من جوامع كلمه ﷺ، كما أنه ركن ركين في إخلاص الأعمال لله رب العالمين، حوىٰ كثيرا من العلوم والمعارف، ولذا ورد عن أهل العلم أن هذا الحديث ثلث العلم، وطفق العلماء في بيان سبب ذلك وتعليله، فذكروا أن الأعمال متعلقة بالقلوب، وباللسان، وبالجوارح، والنية محلها القلب، ولذا كان هذا الحديث ثلث العلم؛ لأنه كان معنيا بالنية، والحديث عنها، وإبراز مكانتها.(٢)

---

(١) فقه بيان النبوة: منهجا وحركة، الدكتور محمود توفيق: ٧ .

(٢) ينظر: فيض القدير شرح الجامع الصغير، محمد المناوي القاهري: ١/ ٣٠

ويُروىٰ عن الإمام الشافعي – رحمه الله– أن هذا الحديث يدخل في نصف العلم، وليس ثلثه، وقد علل ذلك بقوله:"إن النية عبودية القلب، والعمل عبودية القالب، والدين إما ظاهر وهو العمل، أو باطن وهو النية"(١).

ولذا فقد تلقت الأمة هذا الحديث بالقبول، كيف لا وهو أحد قواعد الإيمان الرئيسة، وآكد أركانه، وأقوىٰ دعائمه(٢)، ولذا فقد أخذ حظه وحقه من العناية والتعظيم، وحسبه تلك المنزلة فليس " في أخبار النبي ﷺ شيء أجمع وأغنىٰ، وأكثر فائدة من هذا الحديث"(٣)

ثالثا: مناسبة الحديث لموقعه في كتب المحدثين :

عرف العلماء والمحدثون لهذا الحديث قدره وفضله، وعظيم منزلته، ولذا جعلوه مقدّما، ووضعوه في صدر مؤلفاتهم، وفي مفتتح كتبهم، فقد ذكره الإمام البخاري في صدر صحيحه، وبدأ به كتابه، وأقامه مقام الخطبة للكتاب، دلالة علىٰ أهمية الإخلاص في الأقوال والأعمال، من خلال الإشارة إلىٰ النية وأهميتها، فهي سبب رئيس في قبول الأعمال وردها، فعلم النيات إليه وحده، وسيجازي كل امرئ علىٰ نيته، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.(٤)

وفي صنيع البخاري لما صدر كتابه بحديث (إنما الأعمال بالنيات) إشارة من طرف خفي إلىٰ أنه ما أراد بعمله هذا إلا وجه الله، وابتغاء مرضاته،

---

(١)مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، نور الدين الملا الهروي: ١/ ٤٣

(٢) كوثر المعاني الدراري في كشف خبايا صحيح البخاري، محمد خضر الشنقيطي : ١/ ١٣١

(٣)فتح القوي المتين في شرح الأربعين وتتمة الخمسين للنووي وابن رجب رحمهما الله، عبدالمحسن بن حمد البدر: ١/ ٩

(٤) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني: ١/ ١٥

فقد أشار بذلك" إلىٰ أنه قصد بتأليفه الصحيح وجه الله تعالىٰ وقد حصل له ذلك حيث أعطىٰ هذا الكتاب من الحظ مالم يعط غيره من كتب الإسلام، وقبله أهل المشرق والمغرب".(١)

وقد سار كثير من المحدثين علىٰ سنن البخاري وطريقته في مصنفاتهم؛ دلالة علىٰ أهمية النية، وتفاؤلا بحسن النية، وتأكيدا علىٰ إخلاص أعمالهم(٢)، يدل علىٰ ذلك قول أبي سليمان الخطابي:" كان المتقدمون من شيوخنا يستحبون تقديم حديث (انما الأعمال بالنيات) أمام كل شيء، ينشأ ويُبتدأ من أمور الدين لعموم الحاجة إليه في جميع أنواعها".(٣)

بل استحب العلماء ذكر هذا الحديث في رأس كل باب؛ تأكيدا منهم علىٰ أن تصنيف الكتب وكذلك الإقبال عليها، وقراءتها يجب أن تقوم علىٰ"الإخلاص وصدق النية ورجاء الثواب من الله الكريم، ولتقوية الدين، وإرشاد المسلمين عليه، لا عن الرياء، وإظهار الفضل والمفاخرة علىٰ الناس".(٤)

❁❁❁❁❁

(١) عمدة القارئ شرح صحيح البخاري، بدر الدين العيني: ١/ ٢٢

(٢) ينظر: الميسر في شرح مصابيح السنة، فضل الله بن حسن بن شهاب الدين التوربشتي: ١/ ٣٦

(٣) فتح القوي المتين في شرح الأربعين وتتمة الخمسين للنووي وابن رجب رحمهما الله، عبدالمحسن بن حمد البدر: ١/ ٩

(٤) المفاتيح في شرح المصابيح، للحسين بن محمود الشيرازي المشهور بالمظهري: ١/ ٣١

المبحث الأول: حركة المعنى ودلالته في البيان النبوي

للمعنىٰ أهميته لدىٰ المتكلم، فهو الغاية من حديثه، والألفاظ وسيلة لهذه المعاني، ولذا فهو يحتفي بها احتفاء كبيرا، ويهتم بها اهتماما بالغا، ومن هنا جاء الاهتمام بالمعاني، وبطريقة بيانها، وبذكر الشروط التي يجب أن تتوافر فيها؛ لتكون بليغة، حتىٰ تؤدي الغرض منها، وتجعل النفوس تقبل عليها، بل وتعجب وتتأثر بها.

هذا في البيان بعامة، وأما المعنىٰ في البيان النبوي، فله شأن آخر، كيف وقد أوتي – عليه الصلاة والسلام – جوامع الكلم، وأنه لا ينطق عن الهوىٰ، كيف وكلامه وحي أوحاه الله إليه، وأجراه علىٰ لسانه، فقد كان –عليه الصلاة والسلام– مهتما بمنطقه، أولىٰ معانيه اهتماما يليق بها، فتميز –عليه الصلاة السلام– بمنطقه، وبز البلغاء والفصحاء في انتقاء معانيه، وفي طريقة أدائها، وقد لفت بمنطقه البلغاء والعلماء، فأشاروا إليها، وأشادوا بها، ومن أوائل من تكلم عن بلاغة معانيه الجاحظ في قوله:" هو الكلام الذي قل عدد حروفه، وكثر عدد معانيه، وجل عن الصنعة، ونزه عن التكلف، استعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر ... فلم ينطق عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة، وشد بالتأييد، ويسر بالتوفيق ... ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعا، ولا أصدق لفظا، ولا أعدل وزنا، ولا أجمل مذهبا، ولا أكرم مطلبا، ولا أحسن موقعا، ولا أسهل مخرجا، ولا أفصح عن معناه، ولا أبين عن فحواه من كلامه صلىٰ الله عليه وسلم".[1]

ولن يكون حديثي هنا عن بيانه ﷺ بعامة، وإنما عن طريقة أداء معانيه،

(١) البيان والتبين، الجاحظ: ٢/ ١٦

عما تميز به منطقه، من تدفق معانيه، ومن تصاعدها، فكان معانيه تجري في النفوس جريان الماء، وتتصاعد، وتتآلف وتتحرك نحو أغراضه، ولم يكن المعنىٰ ولا حركته في البيان النبوي مقصودا لذاته، بل جعلها وسيلة لتحقيق أغراضه الدعوية، فهو مرسل من ربه يبلغ دعوته، بأبلغ خطاب، وأجمل بيان، ولذا فإن"الحركة في صور الحديث النبوي موافقة للفكرة، وممثلة لها بأقصىٰ غايات الحجة في شكل يحفز علىٰ التخيل". (١)

وإن النظر في المعنىٰ، وتتبع حركته من البلاغة في الصميم، ويقوم علىٰ إمعان النظر، وإنعام الفكر، ينطلق من التروي وطول التدبر للبيان النبوي، وإدراك المعنىٰ، وتتبع حركته ليس بالأمر اليسير، ولكنه يسير علىٰ من يسره الله عليه، ويحتاج إلىٰ مزيد من التأمل والتفكر في دلالات المعنىٰ وانعطافاته، وللتدبر في البيان النبوي أثره وأدواته، و" ذلك أن التدبر أكرم عطاء، وأنفذ أثرا من التصور؛ فإن الفعل أنفذ وأمكث في القلب من القول، والفعل أصعب مراسا، واثقل أداء، ولا سيما حين يكون الفعل في بيان النبوة الذي هو من مشكاة بيان الله عز وجل". (٢)

وليس هذا بالأمر اليسير؛ وذلك أن النظر في المعنىٰ وتتبع حركته أمر عسير عزيز، وذلك أن المعنىٰ يظهر حينا ويخفىٰ أحيانا، ينكشف مرة، ويتستر مرات، فضلا عن تتبع حركته، ومعرفة خط سيره: صعودا ونزولا، وذلك أن الذي يراقب المعنىٰ ويرصده" كمن يرقب مسرىٰ النفس في النفس، وكمن

(١) الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف، أحمد ياسوف: ٦٧٩

(٢) فقه بيان النبوة: منهجا وحركة، محمود توفيق: ٤

يحاول إبصار الماء في شجرة تتشابك أغصانها، وتتشعب جذورها، وكلاهما غيب عنك، إلا أن الأغصان والأوراق والجذور تهدي إلىٰ حركة الماء، وكذلك الجوارح تهدي إلىٰ حركة النفس، والأمر من الصعوبة كما ترىٰ، ومن الخطر كما تبصر". (١)

وفي حركة المعنىٰ دلالة علىٰ حيويته، وقوة فاعليته، وقوة أثره وتأثيره، فلم يكن النص جمادا لا حركة فيه ولا روح، بل هو كائن حي، ينبض بالحياة، ومفعم بالحيوية، ينمو شيئا فشيئا حتىٰ يكتمل، ويظهر في أبهىٰ حلة، وأكمل صورة، ولا غرو فيها ولا عجب؛ وذلك أن" الحركة مرصودة في الفن القولي منذ أن كان؛ وذلك لاتصافه قبل كل شيء بطابع الزمان؛ لتعبيره عن الأفكار المتحركة باللغة الحقيقية والمجازية؛ ذلك لأن المبدع لا يجمّد الحركة التي يتلقاها، بل يسعىٰ إلىٰ بث المعنوي علىٰ الحسي فيها، والتماس الإيحاءات، وربطها بعدئذ بالفكرة إذ يقتنع العقل بما يقول وتنبسط لديه القلوب". (٢)

ولم يكن البيان النبوي بدعا في هذا الأمر، فقد سار في هذا علىٰ خطا البيان القرآني، فالحركة فيه ظاهرة بارزة، وصورة من صور إعجازه، أشار إلىٰ هذه الحقيقة وأكدها من كتب في بلاغة القرآن وإعجازه، فثمة كتب ودراسات في حركة المعنىٰ في القرآن الكريم، ومن ذلك: دراسة الأستاذ الدكتور إبراهيم صلاح الهدهد، بعنوان: (حركة المعنىٰ في سورة الفجر: دراسة بلاغية)،

(١) حركة المعنىٰ في سورة الفجر، : دراسة بلاغية: ٧ . د إبراهيم الهدهد.

(٢) الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف، أحمد ياسوف: ٦٤٢

وغيرها من الدراسات، ولا غرو أن تكون هذه الدراسة وأمثالها في حركة المعنىٰ؛" ففي القرآن الكريم نجد الحركات علىٰ أنواعها من حيث الرشاقة والثقل والسهولة والقوة والسرعة والحركة الباطنية والحركة الحسية الظاهرة، ونجد الحركة عنصرا جماليا مجسما للمشاعر الدفينة ومحدثا تلهفا يتابع الحياة المتحركة" .(١)

وجاءت الدراسات للبيان النبوي تتمة لدراسة الحركة في البيان القرآني، دلالة علىٰ ما تميز به البيان النبوي في بيان المعنىٰ وتقريره من خلال حركة المعنىٰ ونموه وتصاعده، وللأستاذ الدكتور محمود توفيق دراسة علمية قيمة بعنوان: (فقه بيان النبوة: منهجا وحركة)، وهو من العلماء الأماجد المعنيين بالبيان النبوي، وتتسم كتاباته بالتأصيل، والعمق العلمي، ويجمع فيها بين التنظير والتطبيق، وفي عنوان كتابه دلالة علىٰ المراد، وإشارة إلىٰ حركة المعنىٰ في البيان النبوي، وفي كلمة (فقه) الواردة في العنوان دلالتها المهمة؛ إشارة إلىٰ أن حركة المعنىٰ بحاجة إلىٰ فقه وبصيرة، وطول تأمل ونظر، وصدق فيما ذهب إليه.

ولذا فحركة المعنىٰ وتصاعده ظاهرة في البيان النبوي، تتجلىٰ لمن غاص في أعماقه، ونظر في أعطافه، أدرك هذه الحقيقة من كان له من البيان النبوي نصيب من الدراسة والتأمل، يؤكد هذه الحقيقة ويقررها الدكتور عز الدين علي السيد، في قوله:" ونحن إذا سرنا مع هذا المنطق الوجداني في توليد

(١) السابق: ٦٤٢

المعاني من المعاني، وترتيب العناصر علىٰ العناصر، وإثارة الكوامن بتربية المهابة، أو الشوق في القلوب وجدنا أمرا غالبا علىٰ البيان النبوي جعل من الصحابة أناسا غير من كانوا إياهم قبل أن يؤمنوا إذ وجدوا أنفسهم كل يوم في جديد آسر من كتاب الله – عز وجل– وبيان قاسر، ربما آسر من صاحبهم رسول الله، وهم قوم تسحرهم العبارة، وتدهشهم الإشارة كيف بها إذا حملت مع الافتنان العجيب في اللفظ القيمة النفسية الفائقة في المعنىٰ ؟!". (١)

ولم يكن تتبع المعنىٰ – علىٰ أهميته – مقصودا لذاته، بل هو وسيلة لتسليط الضوء علىٰ المعنىٰ؛ لإبرازه، ولبيان كيف كان سببا في بيان مقاصد صاحبه، وكيف كان وسيلة لإظهار أغراض المتكلم، فالباعث من ذلك كله: بيان غرض المتكلم، والدلالة علىٰ أهمية موضوعه، والإشارة إلىٰ مناسبة الموضوع مع مقامه الذي سيق فيه، وهذا الأمر من الأهمية بمكان، فما " نبتغيه من جمال الحركة في الحديث النبوي مناسبتها للموقف تمام المناسبة قبل كل شيء، وسيطرتها وتملكها للفكرة، ولا نرمي إلىٰ هذا في كل الكائنات، بل في الصور التي تبرز فيها الحركة بروزا واضحا، حتىٰ كأنها هي الفكرة وتبزر كما تبرز النقوش علىٰ جدار منحوت، أو كما يبرز التيار مياه البحر فتطغىٰ صورة الحركة علىٰ سائر الجماليات في النص". (٢)

ومن هنا جاءت هذه الدراسة فهي بيان لأهمية حركة المعنىٰ، ليس علىٰ

(١) الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية، عز الدين السيد: ٢٥٩

(٢) الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف، أحمد ياسوف: ٦٤٤

الإطلاق، ولا علىٰ سبيل التنظير، بل سيكون تطبيقا علىٰ حديث (إنما الأعمال بالنية)، فمكانة هذا الحديث، وما تضمنه من ركائز ومبادئ دفعتني لدارسة حركة معناه؛ للوقوف علىٰ أسراره البلاغية التي تم التعبير عنها من خلال هذا الأسلوب، وسأخصص المبحث الثاني من هذه البحث للدارسة التطبيقية في بيان حركة المعنىٰ في خير بيان في كلامه ﷺ من خلال حديث (إنما الأعمال بالنية).

المبحث الثاني: حركة المعنى وبلاغته في حديث : (إنما الأعمال بالنيات)

عن عمر – رضي الله عنه – قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إنما الأعمال بالنية، وإنما لا مريء ما نوىٰ، فمن كانت هجرته إلىٰ الله ورسوله فهجرته إلىٰ الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها فهجرته إلىٰ ما هاجر إليه" .(١)

يبدأ هذا الحديث من قوله ﷺ (إنما الأعمال بالنية)، فهي محور هذا الحديث، ومنها انطلقت حركة المعنىٰ في بيانها وتفصيلها، وهي من الكلمات الجامعة المانعة، وهي من جوامع الكلم التي منّ الله بها علىٰ رسوله، واعترف بها وافتخر فقال: " بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَبَيْنَا اَنَا نَائِمٌ أُتِيتُ بِمَفَاتِيحِ خَزَائِنِ الأَرْضِ، فَوُضِعَتْ فِي يَدِي "(٢)، وفي رواية (مفاتيح الكلم) من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ -صلىٰ الله عليه وسلم:" أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَبَيْنَمَا اَنَا نَائِمٌ الْبَارِحَةَ اِذْ أُتِيتُ بِمَفَاتِيحِ خَزَائِنِ الأَرْضِ حَتَّىٰ وُضِعَتْ فِي يَدِي" .(٣)

والمراد بجوامع الكلم – كما يذكر العيني –: أنها" الكلمة الموجزة

---

(١) كتاب الأيمان والنذور، باب: النية في الأيمان، رقم الحديث: ٦٦٨٩

(٢) صحيح البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب قول النبي: نُصرت بالرعب مسيرة شهر، رقم الحديث: ٢٩٧٧

(٣) السابق: كتاب التعبير، باب رؤيا الليل، رقم الحديث: ٦٩٩٨ .

لفظا، المتسعة معنىٰ، يعني يكون اللفظ قليلا، والمعنىٰ كثيراً" (١)، وهي صورة من صور بلاغته- بها تميز، وتمايز عن كلام من سواه من الناس، وبلغ بها حد البيان والإعجاز، وهي من خصائصه، وفرائد منطقه، فقد فضّل الله نبيه محمدا علىٰ غيره من الأنبياء بـ: أن أعطاه جوامع الكلم، فكان – عليه الصلاة والسلام – يتكلم بالقول الموجز القليل اللفظ، الكثير المعاني، أعطاه مفاتيح الكلام، وهو ما يسر له من البلاغة والفصاحة، والوصول إلىٰ غوامض المعاني، وبدائع الحكم، ومحاسن العبارات، والألفاظ التي أُغلقت علىٰ غيره، وتعذرت عليه" .(٢)

والبدء بهذه الجملة الجامعة (إنما الأعمال بالنية) من براعة الاستهلال، وحسن الافتتاح، فقد شدت السامعين، وجذبت الأنظار والقلوب إليها، وتلك خاصية من خصائص كلامه ﷺ وهو التشويق، وجذب اهتمام القوم إليه، فيظلون متطلعين متلهفين إلىٰ ما سيأتي بعدها.

ويعد هذا الأسلوب من خصائص منطقه -عليه الصلاة والسلام -، وأسلوبا رفيعا من البلاغة والإبلاغ.

وهو كما – عرفه العقاد – بقوله: " أقوىٰ الإبلاغ في كلام النبي ﷺ هو اجتماع المعاني الكبار في الكلمات القصار، بل اجتماع العلوم الوافية في بضع كلمات، وقد يبسطها الشارحون في مجلدات" .(٣)

---

(١) عمدة القارئ، بدر الدين العيني: ٥/ ١٢

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير: ٣/ ٤٠٧ .

(٣) عبقرية محمد، العقاد: ١١٧

ومما تقدم يتبين أن قوله (إنما الأعمال بالنية) هي محور الحديث ومرتكزه، وما بعدها تفرع عنها، وترتب عليها، ولذا فهي عمق المعنىٰ وخلاصته الذي ستكون حركة المعنىٰ في دائرته، وفي تحقيق مضمونه.

وقد زاد هذا المعنى عمقا وتأكيدا: ذكره من خلال أسلوب الحصر (**إنما الأعمال بالنية**)، ولذا فمن ينظر في حركة المعنىٰ ويتتبعه بتدبر وإمعان يجد أن فيه جملة تكاد تكون محور الحديث، وخلاصته، كما في هذا الحديث، فغالبا ما يكون" البدء بجمل موجزة يشرحها أو يلزمها ما وراءها؛ تأكيدا لمدلولها، وتقوية لمضمونها لدىٰ المخاطب، والجمل تتماسك تماسك العلة والمعلول، وتتعانق تعانق اللازم والملزوم، يؤكد بعضها بمدلوله مدلول صاحبه، وأنت ترىٰ كيف كانت الجملة الواقعة صدرا مستلزمة كل ما وراءها، فجميع ما بني عليها من مستلزماتها" .(١)

(**إنما الأعمال بالنية**) حقيقة مقررة، ولذا جاء القصر فيها ليؤكدها بما تضمنه من نفي وإثبات، دلالة علىٰ" أن قوام الأعمال بالنيات، وألا عبرة بالأعمال إذا خلت عن النيات؛ لأنها العاملة بركنيها: إيجابا، ونفيا، فبحرف التحقيق تثبت الشيء، وبحرف النفي تنفي ما عداه، وهذا كما يقال: إنما الأجساد بالأرواح، أي قيام الأجسام وحيويتها بالأرواح" (٢).

---

(١) الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية، عز الدين السيد : ٤٠٩

(٢) الميسر في شرح مصابيح السنة، فضل الله بن حسن بن شهاب الدين التوربشتي: ٣٦/١

ومن هنا جاء ذكر هذا المعنىٰ والتعبير عنه بالقصر بـ(إنما)؛ لما تتضمنه من مبالغة وتأكيد، فهذه المعاني لا تفارق (إنما) حيث وردت في الكلام البليغ بالإضافة علىٰ دلالاتها علىٰ القصر.[1]

ولم تقف دلالة القصر وبلاغته إلىٰ ما ذُكر، بل تجاوزه إلىٰ دلالة طريق القصر، وهو (إنما) فلهذا الطريق دلالاته ومقاماته التي يأتي فيها، وله من الخصائص والدلالات ما يتميز بها من سائر طرق القصر الأخرىٰ، فتأتي (إنما) في الموضوعات والقضايا التي لا يختلف حولها اثنان، ويسلم الجميع بمحتواها، ولا يختلفون بمضمونها، فلا تأتي في مقام النزاع والشك والإنكار، يدل علىٰ ذلك: قول الله -تعالىٰ- ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ١٠] حقيقة مقررة، ومسلم بها، ومن ذا يجادل حولها، ولن تجد لها منكرا ولا مخالفا.

وكذلك الأمر هنا في هذا الحديث حين قال: (إنما الأعمال بالنية)، حقيقة تسلم لها النفوس، وتقبلها العقول، وتتلقاها بالتسليم والرضا والموافقة، ومن هنا يتبين السر في اختيار هذا الطريق (إنما) في هذا المقام دون سواها من طرق القصر الأخرىٰ، ويتضح معه أيضا مفارقة هذا الطريق للنفي والاستثناء التي تأتي في مقام الإنكار والمنازعات والاختلاف.

---

[1] كوثر المعاني الدراري في كشف خبايا صحيح البخاري، محمد خضر الشنقيطي: ١/ ١٣٤

وللأستاذ الدكتور محمد أبو موسىٰ كلام نفيس في الفرق بين هذين الطريقين يقول: " وترتب علىٰ ذلك أن المعاني التي تدخل عليها "إنما" معانٍ مأنوسة قريبة من النفوس، فلا تدخل علىٰ الحقائق الغريبة، والأفكار البعيدة، هذا هو الأصل فيها، تقول: إنما هو أخوك، وإنما هو صاحبك، وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية، وإنما يعجل من يخشىٰ الفوت، وهكذا أفكار قريبة لينة، وهذا بخلاف "ما" و"إلا" التي تسمع لها قعقعة، وتجد لها حِدَّة، ولذلك لا تُصاغ بها إلا المعاني النافرة، والحقائق النادرة التي من شأن النفوس أن تُنكرها، وتُقيم دونها الأسوار، ومن هنا رأيناها كأنها حراب يفتح بها المتكلم أبواب القلوب، أما "إنما" فهي ـ كما قلنا – أداة رقيقة هامسة، لا تنزعج النفوس لما دخلت عليه، ولا ترفض ما جاء في وعائها، ألا تراك حين تقول لصاحبك: لا تغضب من فلان فإنما هو صديقك، ألا ترىٰ أنك تمتص برفق ثورة غضبه، وكأنك تربت علىٰ كتفه في لين ومودة وتؤدة، تمسح برفق ضغينة نفسه فتذهبها، وهل يمكن أن تستسيغ أن تقول: لا تغضب منه فما هو إلا صديقك، لا شك أن وراء النفي والاستثناء قدراً من الانفعال والحدة لا يتلاءمان مع هذا السياق، لأن النفي والاستثناء له قعقعة وجلبة، والسياق هنا لا يتحمل هذه القعقعة؛ لأنه سياق ملاطفة ومعاتبة، ولفت خفيف إلىٰ المعاني الحلوة الناعمة التي من شأنها أن تذهب بموجدة قلبه". (١)

وفي تعريف لفظة (الأعمال) تأكيد لدلالة القصر، وتقرير له، فالأعمال

(١) دلالات التراكيب، محمد محمد أبو موسىٰ : ١٤٨ .

كلها إنما هي بنية صاحبها، ولذا فالأولىٰ في اللام التي في لفظة الأعمال أن تكون للاستغراق(١)، فذلك هو المتوافق مع دلالة القصر، والغرض منه، يدل علىٰ ذلك.

ويؤكده قول ابن حجر: " واللام مفيد للاستغراق، وهو مستلزم للقصر؛ لأن معناه: كل عمل بنية، فلا عمل إلا بنية" (٢)، فالارتباط ظاهر ووثيق بين دلالة القصر، ودلالة الألف واللام لمعنىٰ الاستغراق، وهذا من بلاغته ﷺ في تكثيف المعنىٰ وإبرازه، ولذا فالنية تشمل الأعمال كلها، ولا يند منها شيء، ولذا فإن اللام بهذه الدلالة تبرز محتوىٰ هذه الجملة (إنما الأعمال بالنية)، وتؤكد بجلاء أنها من جوامع كلمه –عليه الصلاة والسلام–، فقد حوىٰ بهذه الجملة الأعمال كلها، والمعنىٰ أن صحة الأعمال وقبولها مرتبطة بالنية، ومعقودة بها، فلا تكون ولا تحصل إلا بالنية.

وقد اختُلف في المراد بالأعمال الواردة في قوله (إنما الأعمال بالنية)، فقيل: إن المراد بها العبادات، وأنها خاصة في القرب والطاعات؛ فهي التي يحتاج فيها صاحبها إلىٰ النية، وما عداها فلا تدخل في هذا الحديث(٣)، وإن كان هذا الرأي يخالف دلالة الألف واللام للاستغراق، ولذا فالأولىٰ أن يكون المراد بالأعمال العموم، فتجب النية " في كل عمل، فما كان منها قربة أُثيب

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير، زين الدين محمد القاهري: ١/ ٣٠

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني: ١/ ١٢

(٣) ينظر: المفاتيح في شرح المصابيح، الحسين بن محمود الشيرازي المشهور بالمظهري : ١/ ٣١

عليها فاعله، وما كان منها من أمور العادات كالأكل والشرب والنوم فإن صاحبه يثاب عليه إذا نوىٰ به التقوي علىٰ الطاعة "[1] ، ويؤيد هذا المعنىٰ ويقويه دلالة حرف الباء في قوله (بالنية) علىٰ معنىٰ الإلصاق، دلالة علىٰ أن النية لا تفارق الأعمال أبدا، ودلالة الباء هنا علىٰ الإلصاق أقوىٰ من دلالته علىٰ معنىٰ السببية، وعلىٰ معنىٰ الاستعانة كذلك[2]، ولذا فلم" يذكر سيبويه في معنىٰ الباء إلا الإلصاق؛ لأنه معنىٰ لا يفارقها، فلذلك اقتصر عليه" [3]، ويراد بالنية القصد، والإرادة، وعزيمة القلب علىٰ الشيء، وتوجهه إليه[4].

وللعلماء وقفة مع إفراد لفظة (النية)، ومع جمعها في بعض روايات الحديث، فقد ورد إنما الأعمال بالنية، وفي رواية أخرىٰ (إنما الأعمال بالنيات) فقد روىٰ الإمام البخاري – رحمه الله– الحديث بسبعة مواضع في صحيحه، وست روايات منها جاءت بلفظة الإفراد، وبرواية واحدة جاءت لفظة الجمع، في حين أن الإمام مسلم – رحمه الله – خرّجه برواية الإفراد[5].

ففي الإفراد إشارة إلىٰ محل النية وهي القلب، وهو ثابت لا يتعدد، والإفراد فيه دلالة علىٰ ذلك وتأكيد له، كما أن في الإفراد دلالة علىٰ

(١)فتح القوي المتين في شرح الأربعين وتتمة الخمسين للنووي وابن رجب رحمهما الله، عبدالمحسن بن حمد البدر: ١/ ١١

(٢)فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني: ١/ ١٣

(٣)عمدة القارئ شرح صحيح البخاري، بدر الدين العيني: ١/ ٢٤

(٤)ينظر: الميسر في شرح مصابيح السنة، فضل الله بن حسن بن شهاب الدين التوربشتي: ١/ ٣٦

(٥)ينظر: صفحة: ٩، (روايات الحديث)

الإخلاص، ففيه معنىٰ التفرد فهو واحد للواحد الأحد الذي لا ند له ولا شريك[1]، وأما علىٰ رواية الجمع (النيات) فناسب جمعها جمع لفظة الأعمال، فقد قابل الجمع بالجمع، ففي ذلك إشارة إلىٰ تنوع الأعمال وتعددها، والمعنىٰ: أن كل عمل بنية[2].

هذا شيء مما يتعلق ببلاغة قوله (إنما الأعمال بالنية)، وتعمدت أن أقف معها طويلا في بيان بلاغتها ودلالتها، فهي محور الحديث، ومنها تفرعت بقية معانيه، وانطلق منها حركة المعنىٰ، فكانت هي الأصل ثم جاء ما بعدها فرعا وتمثيلا لها، ولذا نستطيع أن نتبين حركة المعنىٰ من خلالها، ومن خلال ما تفرع منها، وجاء بعدها، وفيما يأتي بيان وإيضاح لهذه الحقيقة.

حركة المعنىٰ في هذا الحديث انطلقت من قوله (إنما الأعمال بالنية) فتحرك في تقرير هذه الحقيقة وتأكيدها فجاء قوله (وإنما لا مريء ما نوىٰ)، وفي هذا تصعيد للمعنىٰ، فكانت الجملة الأولىٰ هي الأساس، وهي القاعدة الصلبة التي انطلقت منها الجملة الثانية، فكأن المعنىٰ من خلالها يتحرك ويتجه إلىٰ الأعلىٰ فجاء المعنىٰ تصاعديا في قوله (وإنما لا مريء ما نوىٰ)، ولا يخفىٰ أن حركة المعنىٰ وتصاعده" مما يتصل بالوجدان والثورة النفسية ... وهو طرد الكلام حثيثا في مقدمات، يسلم بعضها إلىٰ بعض كأقيسة

(١)فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني: ١/ ١٣

(٢)كوثر المعاني الدراري في كشف خبايا صحيح البخاري، محمد خضر الشنقيطي: ١٣/١

المنطق، توصل في سرعة وسلامة إلىٰ النتيجة، بحيث لا يشعر المخاطب من سرعة التتابع، والانقياد للمسلمات بجهد دون غايته، وتلك خصوصية في البيان الكريم تكسبه قوة الاستيلاء وشدة الهيمنة علىٰ قلوب السامعين؛ لأنها منطلق النفس إلىٰ النفس" .(١)

وللعلماء حديث حول الارتباط بين هاتين الجملتين، ومن خلال هذا الارتباط يتبين حركة المعنىٰ بين الجملتين، ففي الوصل بين الجملتين دلالة علىٰ ما بينهما من علاقة ووثوق، فقد اتفقت الجملتان في الخبرية، فضلا عما بينهما من ارتباط في المعنىٰ، كما جاء ذكر المعنىٰ وبيانه من خلال أسلوب القصر، ففيه إثبات هذه الحقيقة للمذكور، ونفيه عما عداه، وجاءت الجملة كذلك بطريق (إنما)؛ دلالة علىٰ أن مضمون القصر حقيقة لا ينازع فيها منازع، وإنما تتلقاها العقول والنفوس بالقبول والتسليم، ففي هذا القصر تأكيد أن العامل" لا يحصل له من عمله إلا ما نواه به، فإن نوىٰ خيرا حصل له خير، وإن نوىٰ به شرا حصل له شر" (٢)

وقد جاءت حركة المعنىٰ في قوله (وإنما لا مريء ما نوىٰ) مغايرة للجملة التي قبلها (إنما الأعمال بالنية)، ولذا فليست الجملة الثانية تكرارا عن الأولىٰ، فليس في التكرار حركة، ولا انطلاقة للمعنىٰ، ولذا نفىٰ كثير من شراح الحديث أن تكون الجملة الثانية تكرارا للأولىٰ، يدل علىٰ ذلك ويؤكده

(١) الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية، عز الدين السيد: ٢٥٣

(٢)جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم: ١/ ٦٢

قول ابن عثيمين: " هاتان الجملتان اختلف العلماء فيهما، فقال بعضهم: إنهما جملتان بمعنىٰ واحد، وأن الجملة الثانية تأكيد للجملة الأولىٰ، ولكن ليس هذا بصحيح؛ وذلك لأن الأصل في الكلام أن يكون تأسيسا لا توكيداً"(١)، ومن ذلك قول ابن رجب: " الجملة الثانية ليست تكرارا وليس هذا تكريرا محضا للجملة الأولىٰ"(٢) ، ولذا فليس في الجملة الثانية تكرار، والصحيح أنها جاءت بمعنىٰ مغاير لما تقدمها، والأمر كما يذكر الإمام العيني أن" حمله علىٰ التأسيس أولىٰ؛ لإفادته معنىٰ لم يكن في الأولىٰ"(٣).

ولذا فليس قوله (وإنما لا مريء ما نوىٰ) تكرارا لقوله (إنما الأعمال بالنية)، وقد ذكر العلماء الفرق بين هاتين الجملتين، والإضافة التي أضافتها الجملة الثانية علىٰ المعنىٰ، فتحرك بسببها حركة تصاعدية، فقد دلت الجملة الأولىٰ " علىٰ إن صلاح العمل وفساده بحسب النية المقتضية لإيجاده، والجملة الثانية دلت علىٰ أن ثواب العامل علىٰ عمله بحسب نيته الصالحة، وأن عقابه عليه بحسب نيته الفاسدة، وقد تكون نيته مباحة فيكون العمل مباحا فلا يحصل له به ثواب لا عقاب" (٤)، ومن خلال النظر في معنىٰ كل

(١)شرح رياض الصالحين، محمد بن صالح العثيمين: ١/ ١٧ .

(٢)جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم، ابن رجب الحنبلي: ١/ ٦٢

(٣)عمدة القارئ شرح صحيح البخاري، بدر الدين العيني: ١/ ٢٦

(٤)فتح القوي المتين في شرح الأربعين وتتمية الخمسين للنووي وابن رجب رحمهما الله، لعبدالمحسن بن حمد البدر: ١/ ١١

واحدة منهما، ومن خلال تتبع المعنىٰ وحركته التصاعدية يتبين أن بينهما فرقا، وأنهما مختلفتان في الدلالة والمعنىٰ، بل " إن بينهما فرقا عظيما، فالأولىٰ سبب، والثانية نتيجة، الأولىٰ سبب يبين فيها النبي ﷺ أن كل عمل لا بد فيه من نية، فكل عمل يعمله الإنسان وهو عاقل مختار فلا بد فيه من نية؛ لأن العمل ناتج عن إرادة، إذن فالجملة الأولىٰ معناها: أنه ما من عمل إلا وله نية، ولكن النيات تختلف اختلافا عظيما، وتتباين تباينا بعيدا كما بين السماء والأرض، إذن فالأساس أنه ما من عمل إلا بنية، ولكن النيات تختلف وتتباين، نتيجة لذلك قال (وانما لكل امريء ما نوىٰ) فكل امرئ له ما نوي، إن نوىٰ الله والدار الاخرة في أعماله الشرعية حصل له ذلك، وإن نوىٰ الدنيا قد تحصل وقد لا تحصل"(١)

إذن فليس قوله (وإنما لا مريء ما نوىٰ) تكرارا لقوله (إنما الأعمال بالنية)، ففي التكرار توقف لحركة المعنىٰ، أما التأسيس والمغايرة ففيها نماء للمعنىٰ، وحركة له، وفي حركة المعنىٰ وزيادة في الدلالة، وتكثيف له، كيف والمعنىٰ هنا يتحرك إلىٰ الأعلىٰ، يدل علىٰ هذه الحركة التصاعدية أن الجملة الثانية كانت نتيجة للجملة الأولىٰ، فثمة سبب ونتيجة مترتبة علىٰ ذلك السبب، وما كان لهذه المعاني أن تتولد، وتتحرك وتتصاعد لو كانت الثانية تكرارا من الأولىٰ، وإنما هي حقائق متتابعة، " ومقدمات يسلم بعضها إلىٰ بعض في سير حثيث إلىٰ الغاية يصعد معه شعور المخاطب إلىٰ القمة من

(١)شرح رياض الصالحين، محمد بن صالح العثيمين: ١/ ١٨

درجة في السلم إلىٰ أخرىٰ دون جهد، وقد تتلاحق القضايا دراكا تنقل كل منها أنفاس السامعين من حالة إلىٰ أعلىٰ منها ترددا في صدره حتىٰ تصل إلىٰ النتيجة المبتغاة" .(١)

وتتصاعد حركة المعنىٰ وتتوالىٰ في أجزاء الحديث في قوله ﷺ (فمن كانت هجرته إلىٰ الله ورسوله فهجرته إلىٰ الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها فهجرته إلىٰ ما هاجر إليه).

وقد جاءت حركة المعنىٰ في هذا النص مغايرة لما قبلها، فحركة المعنىٰ هنا تمثيل وإيضاح في حين كانت حركة المعنىٰ قبلها تأسيس وتأصيل.

وهي حركة تصاعدية في بناء المعنىٰ وإيضاحه، كما أنها تفرع عن القاعدة الرئيسة التي استُفتح بها الحديث وهو قوله (إنما الأعمال بالنية)، وحين يعمد المتكلم إلىٰ تفصيل المجمل، وبيان المبهم، أو الشرح والبيان من خلال المثال فإنه بذلك يبين المقصود، ويزيد المعنىٰ تأكيدا وتقريرا، وفي ذلك حركة بالمعنىٰ نحو البيان والوضوح، وهي حركة معنوية اقتضاها المقام؛ لأهمية الموضوع المتحدث عنه، ومن هنا جاء قوله ﷺ : "فمن كانت هجرته إلىٰ الله ورسوله فهجرته إلىٰ الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها فهجرته إلىٰ ما هاجر إليه"؛ ولذا فيعد قوله هذا " مثالا من أمثال الأعمال التي صورتها واحدة، ويختلف صلاحها

(١) الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية: ٢٥٦

وفسادها باختلاف النيات، وكأنه يقول وسائر الأعمال علىٰ حذو هذا المثال"(١).

فكان المثال الأول الذي به تحرك المعنىٰ حركة تصاعدية في بيانه وإيضاحه قوله: "فمن كانت هجرته إلىٰ الله ورسوله فهجرته إلىٰ الله ورسوله".

والمراد بالهجرة هنا: ترك الوطن، ومفارقة الأهل، والانتقال من بلد الشرك إلىٰ بلد الإسلام، ولذا سمىٰ الله من تحول إلىٰ المدينة من المسلمين بالمهاجرين، فقد هاجر إلىٰ الله ورسوله؛ ابتغاء لمرضاتهما، وطاعة لأمرهما، فهو مهاجر إليهما، حتىٰ ولو نال من هجرته أمرا دنيويا، فإنما الأعمال بالنيات(٢)، فهذا مثال لمن كانت نيته خالصة لوجه الله في عمله، يدل علىٰ ذلك قوله "فمن كانت هجرته لله ورسوله" والمعنىٰ: أنه " هاجر إلىٰ دار الإسلام؛ حبا لله ورسوله، رغبة في تعلم دين الإسلام، وإظهار دينه حين كان يعجز عنه في دار الشرك، فهذا هو المهاجر الىٰ الله ورسوله حقا، وكفاه شرفا وفخرا أنه حصل له ما نواه من هجرته إلىٰ الله ورسوله"(٣) ، فكان جزاؤه قوله (فهجرته إلىٰ الله ورسوله).

---

(١)جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم، ابن رجب الحنبلي: ١/ ٧٢

(٢)ينظر: فيض القدير شرح الجامع الصغير لمحمد المناوي القاهري: ١/ ٣٠

(٣)جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم، ابن رجب الحنبلي: ١/ ٧٢

وللعلماء وقفة مع أسلوبه – عليه السلام – في أداء هذا المعنىٰ وتقريره، فقد كان جواب الشرط في قوله (فهجرته إلىٰ الله ورسوله) محط نظر العلماء: تأملا واستنباطا، فيكاد يكون جزاء الشرط متطابقا مع فعله، ومن الأمور المقررة: أنه لا بد من المغايرة بينهما؛ لتحصل الفائدة[١]، فذكر العلماء بعض التقديرات لتحقيق المغايرة بين الشرط والجزاء، فبينوا أن في فعل الشرط وجزائه حذفا، والتقدير فمن كانت هجرته إلىٰ الله ورسوله قصدا وعزما، فهجرته إلىٰ الله ورسوله ثوابا وأجرا[٢]، وقيل: إن في جواب الشرط حذفا، والتقدير: فهجرته مقبولة، وأجره علىٰ الله، فهي كما نواها[٣]، وقيل: من كانت هجرته إلىٰ الله ورسوله في الدنيا فهجرته الىٰ الله ورسوله في العقبىٰ، وعلىٰ هذا التقدير اختلف فعل الشرط عن جوابه فافترقا[٤].

وكل هذه التقديرات اجتهاد من العلماء من أجل إيجاد مغايرة بين فعل الشرط وجوابه، بيد أن الأصل في الكلام ألا يكون فيه حذف، وإذا أمكن حمله من غير حذف ولا تقدير فهو الأولىٰ، كيف ونحن نتكلم عن المصطفىٰ الذي لا ينطق عن الهوىٰ.

(١)ينظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، نور الدين الملا الهروي: ١/ ٤٦

(٢)ينظر: فيض القدير شرح الجامع الصغير محمد المناوي القاهري: ١/ ٣٠

(٣)ينظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، نور الدين الملا الهروي: ١/ ٤٦

(٤)ينظر: فتح القوي المتين في شرح الأربعين وتتمة الخمسين للنووي وابن رجب رحمهما الله، عبدالمحسن بن حمد البدر: ١/ ١٢

ولذا فأنا لست مع من يرىٰ أن فيه حذفا، ومن باب أولىٰ أني لست مع هذه التقديرات، والأولىٰ في نظري أن ننظر في بلاغة هذا الأسلوب في صورته الراهنة، وأن ننظر في المنطوق دون المحذوف.

ولذا طفق العلماء يذكرون سر هذا التماثل بين الشرط والجزاء، ولهذا التماثل أثر مهم في بيان المعنىٰ وحركته، وفي تكثيف المعنىٰ، وإبرازه، ومن هنا كان هذا الأسلوب وسيلة لتحقيق غرض المتكلم في تحقيق معانيه، فمما ذكر من أسرار هذا التماثل: أن فيه تلذذا بتكرير هذين الاسمين: لفظ الجلالة، ولفظة رسوله(١)، وكيف لا يلذ اللسان بذكرهما، وقد جمعت هذه الجملة الرسول والمرسل، رب العالمين، وخير البرية أجمعين؟! والتلذذ بذكر اسم المحبوب، واستطالة الحديث معه من أبرز أغراض الذكر، ومن أهم مقاصد المتكلم في حضره محبوبه.

وقيل: في هذا التماثل بين فعل الشرط وجوابه تعظيم لهذه الهجرة التي خرج صاحبها وهو ينوي بها وجه الله، واتباع رسوله ﷺ.

والمعنى: أن هجرته عظيمة، ونتيجتها جسيمة(٢)، وسيعود نفعها علىٰ هذا المهاجر الذي تركه أهله وأوطانه وهاجر إلىٰ الله ورسوله، فيكون المقصود من المعنىٰ حين جاء بهذا الطريق: التأكيد علىٰ أن هذا" هو المهاجر إلىٰ الله ورسوله حقا، وكفاه شرفا وفخرا أنه حصل له ما نواه من هجرته إلىٰ الله

(١)ينظر: فيض القدير شرح الجامع الصغير محمد المناوي القاهري: ١/ ٣٠

(٢)ينظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، نور الدين الملا الهروي: ١/ ٤٦

ورسوله، ولهذا المعنىٰ اقتُصر في جواب هذا الشرط علىٰ إعادته بلفظه؛ لأن حصول ما نواه بهجرته نهاية المطلوب في الدنيا والآخرة"(١) .

ولا شك أن لهذه الأغراض البلاغية وتكاثرها أثرا في حركة المعنىٰ وإبرازه، فيتحرك المعنىٰ ويزداد مع كل غرض، وتلتقي هذه الأغراض جميعا في بيان المعنىٰ وتقريره، فلكل غرض أثره في بيان المعنىٰ وحركته، ومع تعددها يزداد المعنىٰ حركة وتصاعدا في بيان القضية التي عُني المتكلم بإثباتها، ولأسلوب الشرط حضوره وأثره الفاعل في حركة المعنىٰ، وارتباط بعضه ببعض، فثمة معنىٰ يجرُّ معنىٰ، وأسلوب يستلزم أسلوبا، فجاء جواب الشرط مترتبا علىٰ فعله، وفي ذلك حركة للمعنىٰ، وثراء له.

ولم تقف حركة المعنىٰ في هذا الحديث بل أخذت في النمو والازدياد حين ذكر – عليه الصلاة والسلام– مثالا آخر لمن نوىٰ بهجرته شيئا غير الله ورسوله، ولا شك أن للأمثلة أثرا في نمو المعنىٰ وحركته نحو الغرض المراد تحقيقه وتقريره، في قوله: (ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها فهجرته إلىٰ ما هاجر إليه)، جاء هذا المثال في مقابلة المثال الذي قبله، فهما مثالان متضادان لعمل واحد غيرته الدنيا، فكان بينهما كما بين السماء والأرض في الجزاء والعقبىٰ، وفي ذكر الأمثلة وذكر ما يضادها بيان للمعنىٰ، وحركة به نحو تحقيق غرضه المسوق له، فذكر الأمثلة المتعددة والمتقابلة

(١)فتح القوي المتين في شرح الأربعين وتتمة الخمسين للنووي وابن رجب رحمهما الله، عبدالمحسن بن حمد البدر: ١/ ١٢

بيان للمعنىٰ أي بيان، وسعي به، وحركة نحو الأمام لتحقيق غرض المتكلم، وبيان مقصده، ومن هنا جاء قوله -عليه الصلاة والسلام- (ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها فهجرته إلىٰ ما هاجر إليه).

وفي ذكر الدنيا في هذا السياق إشارة إلىٰ دناءتها وخسة أمرها، ودناءة من يتعلق بها، ويسعىٰ إلىٰ تحصيلها، فقد سميت بذلك من الدناءة والخسة، أو من دنوها إلىٰ الفناء والزوال، وكلها معان تجعل المرء ينفر منها لا أن يقبل عليها، فضلا أن يهاجر من أجلها؛ لكي يصيب أمرا من أمورها.

وقد أبرز هذا المعنىٰ وأظهره حرف اللام في قوله (لدنيا)، فهو للتعليل[1]،فقد أبانت علة هجرته، وبينت سببها، وهي إرادة الدنيا، ومن هنا تتجلىٰ بلاغته -عليه الصلاة والسلام- في بيان المعنىٰ، وتكثيفه وتقريره، وفي ذلك إظهار له من خلال انتقاء ألفاظه، واصطفاء حروفه للدلالة علىٰ مراده، ليجعل المعنىٰ يتحرك صوب ما يريد بيانه وإيضاحه، فبئست الغاية غايته أن يهاجر من أجل أن يصيب شيئا من الدنيا.

ولو وقف ﷺ عند قوله (إلىٰ دنيا) لتبين المعنىٰ المراد بيانه وتم، ولكنه أتبعها بقوله (يصيبها)، فتحرك المعنىٰ إلىٰ مزيد من البيان والتقرير، وإلىٰ مزيد من التنفير والإنكار علىٰ من هاجر من أجل دنيا فانية، ولذا اختار لفظة دقيقة تحقق الغرض، وتؤثر في المعنىٰ، وتحركه إلىٰ بيان المقصود أتم بيان، ففي الإصابة: دلالة علىٰ عِظم الحرص، والدقة المتناهية، والمعنىٰ يحصلها.

(١)ينظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، نور الدين الملا الهروي: ١/ ٤٦

وفي استخدام لفظة (يصيبها) استعارة أصلية تبعية، فقد شبه التحصيل بالإصابة، وفي ذلك إشارة إلىٰ السهم حين ينطلق من قوسه، ويصيب هدفه، وتتجلىٰ بلاغة هذا الاستعارة في هذا المقام: أن فيه سرعة وقوة ونفاذا؛ بجامع سرعة الوصول، وحصول الغرض، وشدة الحرص، وكثرة الطمع(١).

ولم يقف المعنىٰ عند هذا الحد، فقد أتبعه – عليه الصلاة والسلام – بمثال آخر في قوله (أو امرأة يتزوجها).

وضرب الأمثلة نوع من أنواع حركة المعنىٰ، ففيه إيضاح وتقرير؛ ولذا توافر في هذا الحديث، ووظفه ﷺ خير توظيف في بيان نية كل من يهاجر، والغايات التي يسعىٰ إلىٰ تحقيقها من هجرته.

ومن تلك الغايات ما جاء في قوله: (أو امرأة يتزوجها)، وفي هذا المثال: ذكر للخاص بعد العام، فالمرأة خاص، والدنيا عام، وهو طريق من طرق الإطناب، وذكر الخاص بعد العام صورة من صور حركة المعنىٰ في هذا الحديث، ففيه مزيد بيان، وزيادة في الإيضاح والتقرير.

وفي سبب ذكر المرأة هنا والتنصيص عليها مناسبة ذكرها المحدثون عن ابن مسعود – رضي الله عنه، فقد ذكر أن رجلا، " هاجر من مكة إلىٰ المدينة بسبب امرأة، يقال لها أم قيس، فقالوا هذا مهاجر أم قيس فكأنه –عليه السلام– عرّض بهذا القول؛ توبيخا علىٰ صنيعه، وتنبيها له علىٰ الإبانة عن

(١)ينظر: فيض القدير شرح الجامع الصغير محمد المناوي القاهري: ١/ ٣٠

ذلك، وتذكيرا لأهل الاعتبار"[1] ، إلا إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ولذا كان ذكر المرأة هنا وقد سبق ذكرها بطريق العموم: للتنبيه والزيادة في التحذير" من النساء؛ إيذانا بأنهن أعظم زينة الدنيا خطرا، وأشدها تبعة وضررا، وجعلها قسما مقابلا للدنيا؛ إيذانا بشدة فتنتها" [2].

وقد ختم الحديث بجواب الشرط في قوله ﷺ (فهجرته إلىٰ ما هاجر إليه)، وجاء هذا الجواب في مقابلة قوله ﷺ (فهجرته إلىٰ الله ورسوله)، وشتان شتان ما بين هذين الجوابين، في الأسلوب وفي المضمون، فالأول مهاجر إلىٰ الله ورسوله، أما الثاني والثالث: فأحدهما تاجر، والآخر خاطب؛ مع اتفاق صورة عملهم في الظاهر، ولكن اختلف العمل باختلاف النية[3].

وجاء أسلوب كل من الجملتين مختلفا اختلاف كبيرا؛ تبعا لاختلاف مضمون كل واحد منهما، فجاء الإخبار عن هذا التاجر، وذلك الخاطب بقوله: (فهجرته إلىٰ ما هاجر إليه)، فإذا كان الغرض من الجملة الأولىٰ:(فهجرته إلىٰ الله ورسوله) التعظيم، فإن الغرض من الجملة الثانية بهذا الأسلوب: هو التحقير، فهما أقل شأنا، وأقل قدرا أن يُذكرا، دلالة علىٰ شدة المهانة، فقد بلغا مبلغا عظيما في الحقارة، يتنافىٰ معه ذكر أمرهما، والتصريح بغرضهما وغايتهما، ولذا جاء قوله(فهجرته إلىٰ ما هاجر إليه) " احتقارا

(١)الميسر في شرح مصابيح السنة، فضل الله بن حسن بن شهاب الدين التوربشتي: ١/ ٣٦

(٢)فيض القدير شرح الجامع الصغير محمد المناوي القاهري: ١/ ٣١

(٣)ينظر: جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم، ابن رجب الحنبلي: ١/ ٧٢

لهما، وإعراضا عن ذكرهما؛ فلأنهما حقيران، أي الدنيا والزوجة، ونية الهجرة التي هي من أفضل الأعمال؛ لإرادة الدنيا، والمرأة نية منحطة وسافلة، قال:(فهجرته إلىٰ ما هاجر إليه) فلم يذكر ذلك احتقارا؛ لأنها نية فاسدة منحطة" (١).

وفي الاحتقار لهما تنفير لعملهما وتحذير منه، ففي الأولىٰ ترغيب، وفي الثانية ترهيب وتحذير، ولأن في الأولىٰ ترغيبا جاء التصريح باسمهما في قوله: (فهجرته لله ورسوله)، وأما الثانية فكانت ترهيبا وتحقيرا فجاءت الإشارة إلىٰ غرضهما بالضمير دون الذكر، فغايتهما أقل شأنا من الذكر والتصريح به، ومن هنا تتجلىٰ بلاغة الإظهار في الأولىٰ، والإضمار في الثانية، فقد" أورد الظاهر في الجملة الأولىٰ؛ تبركا وتلذذا بذكر الحق -جل جلاله- ورسوله -عليه الصلاة والسلام-؛ تعظيما لهما بالتكرار، وتركه هنا حثا علىٰ الإعراض عن الدنيا والنساء، وعدم الاحتفال بشأنهما، وتنبيهما علىٰ أن العدول عن ذكرهما أبلغ في الزجر عن قصدهما، فكأنه قال إلىٰ ما هاجر إليه، وهو حقير لا يجدي، ولأن ذكرهما يحلو عند العامة، فلو كرر ربما علق بقلب بعضهم، فرضي به وظنه العيش الكامل، فضرب عنهما صفحا لذلك، وذم قاصد أحدهما أن قصد مباحا لكونه خرج لطلب فضيلة الهجرة ظاهرا وأبطن غيره، فالمراد بقرينة السياق ذم من هاجر لطلب المرأة بصورة الهجرة الخاصة"(٢).

(١)شرح رياض الصالحين، محمد بن صالح العثيمين: ١/ ٢٠

(٢)فيض القدير شرح الجامع الصغير محمد المناوي القاهري: ١/ ٣١

وثمة تعليل آخر لذكر حالهما بطريق الإضمار دون التصريح به؛ وذلك أن" الهجرة إلىٰ الله ورسوله واحدة فلا تعدد فيها، فلذلك أعاد الجواب فيها بلفظ الشرط، والهجرة لأمور الدنيا لا تنحصر فقد يهاجر الإنسان لطلب دنيا مباحة، ومحرمة أخرىٰ، وإفراد ما يُقصد بالهجرة من أمور الدنيا لا تنحصر فلذلك قال: (فهجرته إلىٰ ما هاجر إليه) يعني كائنا ما كان، وسائر الأعمال كالهجرة في هذا المعنىٰ، فصلاحها، وفسادها بحسب النية الباعثة عليها"[1].

وفي كثرة المعاني وتعددها: حركة للمعنىٰ، ودلالة علىٰ بلاغتها، فكل هذه المعاني مرادة، ما دامت لا تتعارض، وتحقق غرض المتكلم، بل بسبب هذه المعاني وتكاثرها يتجلىٰ المعنىٰ، ويتبين بوضوح وجلاء، وتتقوىٰ حركته لتحقيق الغرض، وإصابة المحز، ولذلك كان المعنىٰ في هذا الحديث عميقا وكثيرا وغزيرا، بسبب هذه المعاني المتدفقة في النص، والمتحركة الآخذ بعضها برقاب بعض؛ ولذا قسم بعض العلماء هذا الحديث إلىٰ ثلاثة مقاطع:

المقطع الأول قوله – عليه الصلاة والسلام –: (إنما الأعمال بالنية، وإنما لا مريء ما نوىٰ).

والمقطع الثاني من قوله:(فمن كانت هجرته إلىٰ الله ورسوله فهجرته إلىٰ الله ورسوله).

(١) جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم، ابن رجب الحنبلي: ١/ ٧٣

والمقطع الثالث من قوله:(ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها فهجرته إلىٰ ما هاجر إليه)، مبينا ارتباط بعضها ببعض، وتداخلها فيما بينها، فقد سرىٰ المعنىٰ بينها، وتحرك فيها؛ حتىٰ تبين المراد، وتحقق المقصود، وذلك من بلاغته ﷺ، ودلائل نبوته، يقول:" فتأمل ارتباط هذه الجمل الثلاث، وتقرير كل جملة منها بالتي بعدها، وتعلم اختصاص المصطفىٰ -عليه الصلاة والسلام- بجوامع الكلم التي لا يهتدي إليها إلا الفحول" (١).

هذه هي حركة المعنىٰ التصاعدية في هذا الحديث بدأ المعنىٰ، وتفرع من قوله (إنما الأعمال بالنية)، وانتهىٰ عند قوله:(ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها فهجرته إلىٰ ما هاجر إليه)، وفي حركة المعنىٰ: استيفاء له، وإحاطة به من جميع جوانبه، فلم يترك فيه شيئا إلا ذكره بدقة متناهية، وبلاغة عالية، ولم تكن حركة المعنىٰ فيه واحدة بل تنوعت وتعددت، فحينا بذكر قواعد مقررة، وحينا بما يتفرع عنها، ويمت للأولىٰ بصلة، ويزيد عليها، وحينا بضرب الأمثال المتعددة التي تأتي علىٰ كل وجه، وتتناغم مع كل حالة، ولذا فيعد هذا الحديث من خلال هذه الحركة التصاعدية للمعنىٰ نموذجا بليغا لأسلوب الاستقصاء، الذي عرفه السيوطي بقوله:" أن يتناول المتكلم معنىٰ يستقصيه فيأتي بجميع عوارضه ولوازمه

(١)فيض القدير شرح الجامع الصغير محمد المناوي القاهري:١/ ٣١

بعد أن يستقصي جميع أوصافه الذاتية، بحيث لم يترك بعده فيه مقالا" [1]، وعلىٰ حد تعبير ابن أبي الاصبع :" فيستوعب كل ما تقع الخواطر عليه من لوازمه، بحيث لا يترك لآخذه مجالا لاستحقاقه من هذه الجملة" [2]، وكذلك كانت بلاغته -عليه الصلاة والسلام - فقد أحاط بهذا الحديث من جميع جوانبه، فلم يترك فيه لمتكلم مقالا، فقد أتىٰ علىٰ كل مضامينه، وذكر جميع محتواه من خلال حركة المعنىٰ التي شملت كل شيء، وأحاطت بكل شيء: تنوعا وتعددا، فحق له أن يشرف بمنطقه ويفخر بأنه أوتي جوامع الكلم.

❁❁❁❁❁

(١)الإتقان في علوم القرآن، السيوطي: ١/ ٢٨٠ .

(٢)تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن الكريم، ابن أبي الإصبع المصري: ٥٤٣

خاتمة البحث

فها هي خاتمة البحث، شرفت فيه بدراسة حديث من أعظم أحاديث الإسلام: حديث (إنما الأعمال بالنية)، وقفت فيه مع معنىٰ الحديث: حركته وبلاغته، تتبعت حركته، وبينت تصاعد معانيه؛ حتىٰ وصل إلىٰ ذروته، وهي دراسة في حركة المعنىٰ، وهي من الدراسات البلاغية المهمة، وقد بذلت فيه جهدي ووقتي، وما هو إلا توفيق الله وتسديده، وقد أفدت منه كثيرا، وخرجت بعدد من النتائج العلمية، ومن أهمها ما يأتي:

أولا: أن لهذا الحديث فضلا في الإسلام، فقد تواتر عن أهل العلم، وعن المحدثين فضله، إذ ليس أجمع ولا أغنىٰ فائدة منه، ولذا جمع هذا الحديث ثلث العلم، كما ذكر العلماء ذلك، وقد انعكست هذه الأهمية علىٰ أسلوبه، وطريقة بيانه، والإبانة عنه، ولذا كان معناه بليغا.

ثانيا: أن للمعنىٰ في النصوص البليغة حركة وامتدادا، فيتحرك المعنىٰ حركة تصاعدية في إثبات المعنىٰ وتقريره، وله في ذلك وسائل شتىٰ، وأساليب متعددة يتحرك من خلالها، ولن يتم تحديد حركة المعنىٰ إلا من خلال طول النظر في النص: تأملا وتدبرا.

ثالثا: ولم يكن تتبع المعنىٰ، وبيان حركته – علىٰ أهميته – مقصودا لذاتها، بل كان وسيلة لتسليط الضوء علىٰ المعنىٰ؛ لإبرازه، ولبيان كيف كان سببا في بيان مقاصد صاحبه، وكيف كان وسيلة لإظهار أغراض المتكلم، ومناسبته لمقامه الذي قيل فيه.

رابعا: أن قوله -عليه الصلاة والسلام- (إنما الأعمال بالنية) هي محور الحديث، ومنها انطلقت حركة المعنىٰ في بيانها، وتفصيلها، وهي من الكلمات الجامعة المانعة، ومن جوامع الكلم التي منّ الله بها علىٰ رسوله، واعترف بها وافتخر، ومن هذه الجملة المحورية تفرعت بقية المعاني، وانطلقت منها حركة المعنىٰ، فكانت هي الأصل، ثم جاء ما بعدها فرعا وتمثيلا لها، ولذا أستطيع أن أتبين حركة المعنىٰ من خلالها، ومن خلال ما تفرع منها، وما جاء بعدها.

خامسا: تنوعت حركة المعنىٰ في حديث (إنما الأعمال بالنية)، وكانت حركة المعنىٰ حركة تصاعدية، فقد بدأت بجملة جامعة مانعة (إنما الأعمال بالنية) ثم تفرع منها جملة أخرىٰ، وهي قوله: (ولا مريء ما نوىٰ)، بعدها تحرك المعنىٰ من خلال ضرب الأمثلة لأعمال متحدة، والنيات مختلفة، وفي ذلك دلالة علىٰ أن حركة المعنىٰ متعددة، وتتخذ أشكالا عدة، فقد يكون بالشرح والإيضاح، وقد يكون بالتأكيد والتكرار، وقد يكون بضرب الأمثلة المتعددة .

سادسا: جاءت بلاغة الحديث متوافقة مع حركة المعنىٰ، ومتناغمة معه، فمن حق المعنىٰ الشريف اللفظ الشريف، ولذا عمرت الأساليب البلاغية هذا الحديث، وتوافرت فيه، ولذا تعمدت أن أتحدث عن بلاغته، وأبين ما تضمنته من أساليب بلاغية، بل جعلته جزءا من عنوان بحثي؛ دلالة علىٰ أن

الأساليب البلاغية وسيلة تخدم المعنىٰ وتبرزه، وأن كل ما يرد في النص يتم توظيفه في إبرازه معنىٰ الحديث، وغرض المتكلم.

وأوصي في خاتمة هذه الدراسة: باهتمام الباحثين والدارسين بموضوع حركة المعنىٰ، وإبراز هذا الموضوع في الدراسات البلاغية: تنظيرا وتطبيقا، ودراسته في البيان العالي: في البلاغة القرآنية، وفي البلاغة النبوية، مع أهمية التنظير له، وبيان أهميته في الدرس البلاغي، وبيان جهود العلماء فيه قديما وحديثا، وعدم اقتصار الدرس البلاغي علىٰ علوم البلاغة الثلاثة: المعاني والبيان والبديع، فالبلاغة أكبر من أن تُحصر في هذه العلوم الثلاثة، بل تفيد منها وتنطلق إلىٰ غيرها، والله أعلم. وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد.

والحمد الله الذي بنعمته تتم الصالحات

ثبت المصادر والمراجع

١. الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، لجلال الدين عبدالرحمن ، تقديم وتعليق: د. مصطفىٰ البغا، ط٢، بيروت، دار ابن كثير، ١٤١٤ هـ .

٢. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، الرافعي، مصطفىٰ صادق، ص٩، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٣٩٣هـ .

٣. البيان والتبين، الجاحظ، أبو عثمان الجاحظ، تحقيق: عبدالسلام هارون، ط٥، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٤٠٥هـ .

٤. تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن الكريم، المصري، ابن أبي الإصبع، تحقيق: الدكتور حفني محمد شرف، لجنة إحياء التراث الإسلامي. (د- ت) .

٥. جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم، الحنبلي، زين الدين عبدالرحمن بن أحمد بن رجب ، تحقيق الدكتور محمد الأحمدي أبو النور، ط٢، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٢٤هـ .

٦. الحديث النبوي من الوجهة البلاغية، السيد، عز الدين علي، ١٣٩٢هـ.(د- ط).

٧. حركة المعنىٰ في سورة الفجر: دراسة بلاغية، الهدهد، إبراهيم صلاح، ط٢، القاهرة، مكتبة وهبة، ١٤٤٠هـ

٨. دلالات التراكيب، أبو موسىٰ، محمد محمد، ط٢، القاهرة، مكتبة وهبة، ١٤٠٨هـ.

٩. شرح رياض الصالحين، العثيمين، محمد بن صالح بن محمد، دار الوطن للنشر، الرياض، ١٤٢٦ هـ. (د – ت)

١٠. صحيح البخاري، البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، ط١، استانبول، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، ١٣٧٤هـ.

١١. صحيح مسلم، النيسابوري، أبو الحسين مسلم بن حجاج، حقق نصوصه: محمد فؤاد عبدالباقي المكتبة الإسلامية، استانبول، (د ـ ت).

١٢. الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف، ياسوف، أحمد، ط١، دار المكتبي ـ دمشق، ١٤٢٣هـ.

١٣. عبقرية محمد، العقاد، عباس محمود، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٩. (د ـ ت).

١٤. عمدة القاري، العيني، بدر الدين محمد بن أحمد، ط١، القاهرة، نشر مكتبة ومطبعة مصطفىٰ البابي الحلبي وأولاده ، ١٣٩٢هـ .

١٥. فتح الباري شرح صحيح الإمام أبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري، القسطلاني، أحمد بن علي بن حجر، حققه محمد محب الدين الخطيب، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه محمد فؤاد عبدالباقي، ط: ٤، المكتبة السلفية، القاهرة، ١٤٠٨هـ.

فتح القوي المتين في شرح الأربعين وتتمة الخمسين للنووي وابن رجب رحمهما الله، البدر، عبدالمحسن بن حمد بن عبدالمحسن بن عبدالله بن حمد العباد، ط١، الدمام، دار ابن القيم ، ١٤٢٤هـ .

١٦. فقه بيان النبوة: منهجًا وحركة، سعد، محمد توفيق، ط١، القاهرة، مطبعة الأمانة ١٤١٣هـ.

١٧. فيض القدير شرح الجامع الصغير، المناوي، زين الدين محمد، ط١، القاهرة، المكتبة التجارية الكبرىٰ، ١٣٥٦ هـ

١٨. كوثر المعاني الدراري في كشف خبايا صحيح البخاري، الشنقيطي، لمحمد خضر بن سيد عبدالله بن أحمد، ط١، بيروت، مؤسسة الرسالة ١٤١٥هـ

١٩. مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، الهروي، علي بن سلطان محمد أبو الحسن نور الدين الملا، ط١، بيروت، دار الفكر، ١٤٢٢ هـ.

٢٠. المفاتيح في شرح المصابيح، المظهري، الحسين بن محمود الحسن مظهر الدين الزيداني الشيرازي، تحقيق ودراسة لجنة مختصة من المحققين بإشراف نور الدين طالب، ط١، الكويت، دار النوادر وهو من إصدارات إدارة الثقافة الإسلامية وزارة الأوقاف الكويتية،١٤٣٣ هـ

٢١. الميسر في شرح مصابيح السنة، التوربشتي، فضل الله بن حسن بن حسين بن يوسف أبو عبدالله شهاب الدين، المحقق د. عبدالحميد هنداوي، ط٢، مكة، مكتبة نزار مصطفىٰ الباز،١٤٢٩هـ.

٢٢. النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، مجد الدين أبي السعادات، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، ومحمود محمد الطناحي، بيروت، المكتبة العلمية ـ (د ـ ت) .